Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالتتابع لا بالطفرات، وبالتراكم لا بالقفزات. وفي هذا الإطار فإننا نلم مثلا بأن المختار السوسي ولد بتاريخ عيّنه في الزمن، ودرس في الكتاب السوسي على هذا الشيخ أو ذاك، إلى رحلته إلى مراكش وفاس والرباط، ثم العودة إلى مراكش، وسنوات النفي، وما شاكل ذلك من التطورات التي يمكن التعرف عليها وتحديدها في الزمن وفق بناء غالبا ما يظهر للقارئ خطيا لا يحيد عن تدفقه وجريانه.

الذاكرة/ الذكريات - وحين نمعن النظر في مفهوم الذاكرة، بالتحديد الذي أسلفنا ذكره من قبل، فإننا نجدها، في الواقع، كما يقول (مارينا) عبارة عن بنك للمعلومات تشبيها لها بالحاسوب، مع الفارق. ولهذا يعتبرها طريقا إلى المعلومات، لأن الإنسان يبحث فيها عن المعلومات التي يحتاج إليها ويريدها، وبحثه هذا يعتبر نشاطا ذكيا صادرا عن مشروع معين.

وأعتقد أن الذاكرة في السيرة الذاتية تنحل، في عملية الكتابة بوصفها عملية استذكار للماضي، واعتبارا للمشترطات التي بها تتم العملية في الحاضر أيضا، إلى مجموعة من الذكريات. وربما كان الأصح أن نتكلم، في هذه الحالة، عن ذاكرات: ذاكرة الطفل، وذاكرة الشاب، وذاكرة الكهل...إلخ. وظني أنه لا يمكن التعامل مع هذه الذاكرات كمحطات منعزلة، بل هي تقود إلى بعضها، وتوجد ضمن شبكة واحدة. على أن الفارق بينها قد يكون فارقا زمنيا، أي من حيث التطور، القرب أو البعد، ويمكن أن يكون فارقا في التعيين، أي حسب محمول كل ذاكرة وقدرتها على الحضور بالنسبة لوقت الاستذكار.

ويظهر لي أن المختار السوسي استنجد بذاكرة الطفل، على ما بها من انخرام، كما يقول، للإشارة إلى مراحل الوعي الأولى، وتعيين بداية طفولته. وإذا قدرنا أنه قام بهذه العملية في فترة متأخرة من وجوده، وأن ما قبل إدراكه لطفولته، وقد تكون مرحلة لاواعية، تَمّ له أن يدركه بعد، فإننا نستطيع أن نقول إن تعيين البداية الأولى للطفولة، يخدم عملية التأريخ للوجود الذاتي، باعتباره جوهرا مفردا، لا يتشارك مع غيره من الموجودات المفردة في أي شيء. وهناك دلالات نصية كثيرة تكشف عن هذه القضية، منها ما يذكره المختار السوسي باستمرار بأن مرحلة الطفولة كانت مرحلة لهو وشيطنة، وتراه، حين يعي ذلك، يلقي على نفسه باللائمة، لأنها ذهبت هدرا. وفي هذا الإطار فإن ذاكرة الشاب، وهي مرحلة أخرى، إنما صلحت، من خلال سرد الذكريات المتصلة بها، لإبراز الإمتداد والتواصل والاستمرار، ولكن أيضا للتأكيد على انتقال الوعي الطفولي من عماه البدئي، إلى وعيه بذاته. وتترافق هذه المرحلة في السيرة الذاتية مع تحصيل العلم والانتقال بين مدارس سوس للاستزادة منه. ويمكن أن نراها أيضا كذاكرة تؤدي إلى المراحل اللاحقة، فهي بمثابة الجسر الذي يصل بداية الوعي (الطفل) بالوعي